


المنظومة
ALMANDUMAH

مؤسسة الزوايا بوادي درعة
ق 10 و11هـ /16 و17م
بين الإشعاع العلمي والانتشار الصوفي

ذ.أحمد البوزيدي

تقديم:

اشتهرت واحات وادي درعة منذ العصور الوسطى بربطها العلمية والصوفية(1)، وقد ظلت هذه الربط ، ولعدة قرون ، تقوم بدورها كاملا في تأطير سكان وادي درعة اجتماعيا ودينيا، إلى أن طفح الوادي في نهاية القرن التاسع الهجري /15م ومطلع القرن العاشر الهجري/16م بأتباع الطريقتين الجزولية(2) والزروقية(3) حيث عملوا على تمهيد طريقة السلطة للأشراف السعديين وبعدما تمكن السعديون من الحكم استغنوا عن العشرات من المنتسبين إلى الطرق الصوفية فالتحق أهل درعة بمناطقهم وتفرغوا كلية للعمل الصوفي أو العلمي ، وقد استفرغوا جهودهم في بناء عدد كبير من الزوايا على طول واحات الوادي من أفلاندرى بمزكيطة إلى مشارف المجابة الكبرى جنوب محاميد الغزلان، وجل هذه الزوايا قامت على أنقاض الربط القديمة أو بالقرب من مواقعها وقد تحولت جل هذه الزوايا خلال القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين 16 و17م إلى مؤسسات علمية أو صوفية حقيقية تمكنت بفضل ما توفر لها من إمكانيات مادية وما لها من أتباع بين مختلف القبائل أن تقوم بدور بارز في تأطير المجتمع والتخفيف من وطأة الأزمات الاجتماعية إبان فترات الجفاف أو الفراغ السلطوي.

---

* أستاذ باحث بكلية الآداب ظهر المهراس / فاس.

1.من الربـاط إلى الزاويــة :

1 ـ انتشار الربط بالمغرب :

تؤكد كل المعطيات التاريخية على أن الرباط أسبق للوجود من الزاوية(5) وقد انتشرت الربط في البلاد الإسلامية مع انطلاق عمليات الفتح ، حيث كان المسلمون يقيمون مراكز حراسية في الثغور المتاخمة لبلاد العدو، وكان المجاهدون يرابطون في هذه المراكز لمراقبة تحركات العدو، وكانت هذه الربط ، تقدم بالإضافة إلى دورها في مراقبة العدو وتجنب هجوماته المباغتة، بتدريب المقاتلين واستقبال المتطوعين الجدد الراغبين في الانضمام إلى صفوف المجاهدين. وقد عرف المغرب كغيره من البلاد الإسلامية انتشار ظاهرة الربط منذ زمن الفاتحين الأوائل ، وقد كانت الربط المغربية القديمة تنتشر بشكل خاص على طول السواحل البحرية، حيث كان المرابطون يحرسون البلاد من الهجومات المباغتة للعدو من البحر(6). ولما تمكن ناموس المذهب المالكي من عقلية الفقهاء المغاربة على أيام الأدارسة والمرابطين(7) امتدت ظاهرة الربط إلى المناطق الداخلية، وتطورت وظائفها إلى نشر العلم وبث أسس المذهب المالكي. وانطلاقا من هذه الربط وبدعم من رجال الدولة، خاصة في العهد المرابطي ، تجند الفقهاء لمحاربة أهل البدع والنحل الضالة(8) وبعدما هبت ريح التيار الصوفي المشرقي على أرض المغرب وانمحت أثار النِّحل الضالة من داخل البلاد، انحصرت وظيفة الربط في نشر العلم وبث مبادئ التصوف في الأوساط الشعبية، ومع مرور الوقت وغياب جهابذة العلماء تحولت هذه الربط إلى مراكز لإيواء المريدين من أتباع أهل التصوف، وكانت الفئات المعوزة والفقيرة تجد في هذه الربط من يوفر لها كل لوازم الحياة اليومية ويحميها من الجوع مقابل القيام ببعض الشعائر الدينية والصوفية من عبادات وأذكار.

2 ـ انتشار الربط بواحات درعة :

نستشف من بعض الإشارات التاريخية أن واحات درعة كانت معروفة بربطها القديمة، وأن هذه الربط كانت مقصد لذوي الحاجات الدينية والدنيوية(9) وبالرغم من أن أهل هذه الربط القديمة قد اندثرت ولم يبق منها إلا الذكر الذي ما يزال عالقا بذاكرة السكان، أو ما تبقى من ركام الحجارة والأتربة بمقابر أصحابها، فإن بعضها قد تحول إلى قصر كبير كما هو الحال بالنسبة لرباط الحجر بتيرناتة ورباط المزوار بتينزولين، ورباط طجينة بمزكيطة ، كما تحول بعضها إلى زاوية كما هو الحال لزاوية سيدي علال بواحة فزواطة التي أقيمت على أنقاض رباط تفكروت وزاوية أبي الحسين بمزكيطة التي أقيمت على أنقاض رباط إغَرْغَرْ. كان رواد

هذه الربط بمناطق الواحات يعرفون باسم"المرابطين"(10) وأضحت ميزة المرابط إبانه على من حصر نفسه في الرباط، وسبَّلَ عمره(11) لخدمة العلم والتصوف واستنفد جهده لخدمة المعوزين والفقراء الذين ألجأتهم الفاقة والضرورة إلى رباطه. وكان سكان القصور يمدون المرابط بما تجمع لديهم من زكاة وأعشار، عينية ونقدية، لتكون عونا له على استقبال الفقراء والمعوزين وأبناء السبيل وتقديم الوجبات الغذائية لهم دون مقابل. وكان هذا الدور الاجتماعي للرباط والمرابط يزداد أهمية إبان فترات الأزمات الاقتصادية التي كانت تفاجئ سكان الواحات كلما اشتدت وطأة الجفاف الذي كثيرا ما كان يحل ضيفا ثقيلا على سكان الوادي.

وهكذا يمكن القول بأن الرباط خلال العصور الوسطى المتأخرة قد تخلى عن وظيفته الجهادية وتحول إلى مكان لنشر العلم وبث مبادئ التصوف، ومكان للعبادة والإقبال على الله ، وصار المرابط(صاحب الرباط) بزهده وتصوفه وما كان يقدمه من عون وإسعاف لذوي الحاجات من الفقراء والمعوزين ، يشكل النموذج البشوي الذي يسمو بأفعاله وأعماله التكافلية، على مستوى الإنسان العادي بين سكان الواحات ، ولامشاحة إذا قلنا بأن هذه الوظائف التكافلية التي يقوم به المرابط في مجتمع يتسم إنتاجه بالقلة والشح، كافية لإضفاء طابع التقدير والاحترام المشوبين بنوع من التبجيل والتقديس على الرباط وصاحبه، وبعدما طما عباب الطرق الصوفية خلال القرن التاسع الهجري /15م استطاعت الزوايا بفضل تنظيماتها وتوجهاتها الصوفية أن تحل محل الربط في كل جهات المغرب عامة وبدرعة خاصة.

3 ـ ظهور الزوايا بالمغرب :

في الوقت الذي كان فيه الرباط قد تخلى عن وظيفته الأصلية وتحول إلى وظائف ذات طابع اجتماعي وصوفي ظهرت الزاوية في بعض جهات المغرب لتزاحم الرباط في بعض وظائفه الاجتماعية ثم ما لبثت أن سلبته كل وظائفه لتحل محله. فمتى ظهرت الزاوية في المجتمع المغربي ؟ وما هي الوظائف التي كانت تقوم بها في بداية الأمر ؟ ثم ما هي التطورات التي عرفتها الزاوية في الواحات الجنوبية حتى أضحت مؤسسة اجتماعية قائمة الذات بالأوساط القبلية ؟

نستشف من بعض الإشارات التاريخية أن ظهور الزاوية بمفهومها الإحساني يرجع إلى عهد السلطان أبو يوسف يعقوب المنصور الموحدي 595 – 580)هـ(الذي أسس زاوية بمراكش أطلق عليها إسم"دار الكرامة"(12) لإطعام المحتاجين والفقراء المعوزين وقد كان يعقوب المنصور معروفا بأعماله الإحسانية(13) أما الشيخ أبو محمد صالح الماكري، الذي كان معاصرا لهذا السلطان، فقد أسس عددا من الزوايا على طول طريق الحج من المغرب إلى الحجاز، وكان القيمون على هذه الزوايا من أتباع أبي محمد صالح يعملون على

تيسير وسول الحجاج المغاربة إلى الحجاز لتأدية فريضة الحج، والقيام بكل شؤونهم(14) وكان هؤلاء يستغلون هذه الزوايا لنشر مبادئ التصوف والعمل على تقوية الاتصال بين المغاربة والمسلمين في المشرق(15).

وبعد قيام الدولة المرينية، اهتم عدد من سلاطين هذه الدولة بتأسيس شبكة من الزوايا لأغراض إحسانية "بأرباض المدن والفلوات برسم استقبال الواردين عليها لإيوائهم والقيام بضيافتهم"(16) وقد كانت هذه الزوايا المرينية تعرف بدار الضيافة(17) وكان الهدف من إنشاء هذه الزوايا هو توفير الراحة لضيوف السلطان الوافدين من الخارج من كبار رجال الدولة وأعيانها(18). وفي عهد السلطان أبي الحسن المريني 752 – 731)هـ(عرفت زوايا الدولة المرينية تحولا نوعيا بحيث أن دورها لم يعد مقتصرا على استقبال الضيوف، بل تخطاه إلى استقبال أتباع بعض الطوائف الصوفية والراغبين في طلب العلم، خاصة أن الدولة قد أنشأت المدارس العلمية إلى جانب هذه الزوايا في الحواضر الكبرى، وأوقفت عليها الأملاك العريضة للقيام بمهامها كاملة، وهكذا لم ينته القرن الثامن الهجرى، حتى أضحت الزوايا بالمغرب سواء منها تلك التي أنشأتها الدولة، أو التي أنشأها بعض شيوخ التصوف، مؤسسات اجتماعية حقيقية تجمع بين نشر العلم وبث مبادئ التصوف والأعمال الإحسانية، وباتت تشكل المكان المفضل لبعض شيوخ التصوف الذين ينقطعون بها للتعبد وإرشاد العباد(19) . لاشك أن رعاية الدولة المرينية لهذه الزوايا قد مكنها من القيام بوظائفها الإحسانية والصوفية والعلمية بشكل متوازن ، الأمر الذي حال دون غلبة وظيفة بعينها على الوظائف الأخرى، إلا أن التقلبات السياسية التي عرفها المغرب خلال النصف الثاني من القرن الثامن وردحا من القرن التاسع الهجري، وانشغال المتأخرين من سلاطين الدولة المرينية بالصراع على السلطنة(20) فسح المجال أمام الطرق الصوفية التي اشتد عودها في بحر القرن التاسع الهجري (القادرية والزروقية والجزولية) لتسيطر على جل الزوايا المنتشرة بالبوادي والمناطق الجبلية، وبات شيوخ الطرق الصوفية الذين يسهرون على تدبير شؤون الزوايا يركزون بشكل أكبر على تربية المريدين ونشر مبادئ التصوف، كما تصدى بعضهم لتأطير المجتمعات القبلية في وقت يزداد فيه غياب نفوذ السلطة المركزية بالجهات النائية(21). وفي بحر القرن التاسع الهجري / 15م، انفلت زمام السيطرة على جل جهات المغرب من أيدي المتسلطنين بفاس من متأخري الدولة المرينية والذين استخلفوهم من بني وطاس، وقد صادفت هذه الفترة انطلاق عمليات الإيبيريين بالسواحل المغربية ونجاحهم في احتلال بعض المدن، فكان من عواقب ذلك على المستوى الشعبي استيقاظ روح المرابطة والجهاد في نفوس المغاربة، وكانت الطرق الصوفية وبصفة خاصة الطريقة الجزولية، المتغلغلة في الأوساط القبلية، مؤهلة أكثر من أي جهة أخرى لتأطير المجاهدين. وفي إطار الاستعداد لمنازلة الإيبريين بالسواحل المغربية سعى شيوخ الطريقة الجزولية من

تلامذة وأتباع الشيخ محمد بن سليمان الجزولي(22) إلى تأسيس شبكة من الزوايا بسلا وفاس وزرهون ومكناس وأنماي وأفوغال وأنقا وماسة بسوس وغيرها(23).

وهكذا لم يكد ينتهي القرن التاسع الهجري / 15م حتى أضحت الطريقة الجزولية أهم طريقة تمكن أتباعها من الانتشار الواسع بالجنوب المغربي وخاصة بسوس ودرعة. وقد عرف شيوخ هذه الطريقة كيف يستفيدون من تذمر قبائل هاتين المنطقتين من الانهيار الاقتصادي نتيجة تراجع الطرق التجارية الصحراوية بتحول نشاط الحركة التجارية إلى السواحل بعد ظهور البرتغاليين والإسبانيين بسواحل سوس((24) فتجندوا لاستنهاض همم مختلف فئات سكان هذه الجهات ودعوتهم للمشاركة بالأموال والأنفس في العمل الجهادي ضد الإيبيريين، وقد كانت استجابة السكان لدعوة شيوخ الطريقة الجزولية مكثفة، الأمر الذي استدعى إنشاء شبكة واسعة هي الزوايا بجبال جزولة بالأطلس الصغير وجبل باني ووادي درعة، وما ابث شيوخ الطريقة الجزولية أن حولوا هذه الزوايا إلى مراكز حقيقية لتدريب المقاتلين على الرماية وفنون الحرب ويخصصون لهم أوقاتا معينة لسرد الأحاديث النبوية الواردة في فضل الجهاد، وفي هذه الفترة بالذات ظهرت الزوايا الأولى بواحات وادي درعة .

II . الزوايا بدرعة : من التأسيس إلى التوسع والانتشار :

ظهرت الزوايا الأولى بوادي درعة على يد جماعة من شيوخ الطريقة الجزولية الذين هاجروا من جبال جزولة إلى وادي درعة في نهاية القرن التاسع الهجري /15 م ومطلع القرن العاشر الهجري / 16م. وكانت أول زاوية تابعة للطريقة الجزولية بالوادي حسب المصادر التاريخية هي زاوية سيدي علي بن محمد البكري الجزولي(25) بمنطقة تامكروت من فزواطة(26) ثم ظهرت بعدها زاوية تاكمادارت في المدخل الشمال من نفس الواحة ، وقد كان دور هاتين الزاويتين في بداية الأمر منحصرا في نشر العلم وتربية المريدين والدعوة إلى الجهاد وحشد أكبر عدد ممكن من المجاهدين استعدادا للمواجهة مع الإيبيريين بسواحل سوس، وقد انتهت هذه المهمة التأطيرية للزوايا بالمغرب عامة وسوس ودرعة خاصة، بعد قيام الدولة السعدية وتصدي سلاطينها لقيادة حركة الجهاد بل إن السلطان محمد الشيخ السعدي (ت964) قد سعى إلى تقليص دور شيوخ الطريقة الجزولية والمتفقرة منهم بين العامة "لما كان لهم فيهم من الاعتقاد والمحبة والوقوف عند إشاراتهم"(27) ويظهر من خلال تتبعنا لنوعية العلائق "الخاصة" بين سلاطين الدولة السعدية وشيوخ الطريقة الجزولية بدرعة، أن هؤلاء الشيوخ قد استوعبوا جيدا موقف الدولة السعدية من الزوايا لذلك توقفوا عن الدعوة للجهاد وحولوا كل جهودهم إلى نشر العلم وإفادة من رغب فيه من أهل الوادي وغيرهم من أهل المناطق المجاورة، مثل تافيلالت وسوس والصحراء، فأنشأوا زوايا خاصة على

شكل قصور مستقلة كانوا ينعزلون فيها بأتباعهم وطلابهم بعيدين عن الصراعـات السياسية بين أعيان القبائل والمماحكات اليومية التي تفرضها طبيعة المنطقة بين الرحل والمستقرين إذن فما هي هذه الزوايا التي ظهرت بدرعة خلال القرن العاشر الهجري / 16م ؟

1 ـ مرحلة تأسيس الزاوية ـ القصر :

ظهرت هذه الزوايا ـ القصور بواحات درعة ، خلال القرن العاشر الـهجري / 16م على دفعتين :

ـ الدفعة الأولى : مـن جملتها زاوية سيدي علي بن محمد الشيخ الجزولي البكري وزاويـة تاكمادارت بـواحة فزواطة وزاوية سيدي محمد بـن مـهدي الحـراري بواحة ترناتة(28).

ـ الدفعة الثانية : من جملتها زاوية تامكروت الأنصارية التي أسسها الشيخ سيدي عمرو بن أحمد الأنصاري حوالي سنة 983/1575م(29) وزاوية تينـمسـلا القادرية التي أسسها الشيخ أبو القاسم بن عبد الرزاق بواحة تيـنزولين، فـي زمـن غـير معروف إبان العقود الثلاثة الأخيرة من القرن العاشر الهجري / 16 م(30). وهكـذا وانطلاقا من الوظائف الأساسية لهذه الزوايا أمكننا التمييز بين صنفين من الزوايـا ـ القصور بدرعة.

أ ـ الزوايا العلمية :

وهي الزوايا التي أنشأها بعض العلماء لتقوم بدور علمي، وكانت هذه الزوايـا من بناء مجموعة من العلماء الذين هاجروا من سوس إلى درعـة خـلال القـرن العاشر الهجري / 16م أو من بناء بعض المتخرجين من أهل درعة على يد هـؤلاء المهاجرين ، ومن هذه الزوايا العلمية :

1 ـ زاوية سيدي علي بن محمد البكري: يعتبر هذا الشيخ من أوائل علمـاء جبال جزولة الذين هاجروا من سوس إلى درعة، ومـن أوائـل شـيوخ الطريقـة الجزولية الذين أدخلوا هذه الطريقة إلى وادي درعة(31) حيث مهد بدعوته الجهادية طريق الحكم للأشراف السعديين، بني سيدي علي بن محمد البكري زاويتـه بجهـة تامكروت بفزواطة وتصدر فيها لتلقين العلوم الفقهية إلى جانب اهتمامه فـي بداية أمره بالدعوة إلى الجهاد. وقد تخرج من هذه الزاوية عدد لا يحصى من العلماء من درعة وسوس وغيرها(32) وقد ظلت هذه الزاوية تقوم بمهمتها العلمية إلـى غاية أواسط القرن الثاني عشر الهجري / 18م(33). وقد خلف علماء هذه الزاوية خزانـة علمية حافلة نهبها زيدان السعدي في غمرة الأحداث التي عرفها المغرب بعد وفـاة المنصور خلال العقود الثلاثة الأولى من القرن الحادي عشر الـهجري / 17م وقـد انتهى المطاف بكتب هذه الخزانة إلى الإسكوريال بإسبانيا بعدما تمكـن القراصنـة الإسبـان من نهبـها من الباخرة الفرنسية التي تكلفت بنقل أمتعة زيـدان السـعدي

سنة 1022هـ /1613م من أسفي إلى أكادير(34) وقد انتهى الدور العلمي لهذه الزاوية منذ أواسط القرن الثاني عشر الهجري / 18م.

2 ـ **زاوية سيدي محمد بن مهدي الجراري:** ينحدر بن مهدي الجراري من أسرة سوسية هاجرت إلى وادي درعة في وقت غير معروف من نهاية القرن التاسع الهجري/15م أو مطلع القرن العاشر الهجري / 16م، يعتبر من أبرز العلماء المتخرجين من زاوية سيدي علي بن محمد الجزولي، استقر بصفة نهائية بواحة ترناتة، حيث أسس الزاوية التي ما تزال تحمل اسمه إلى اليوم، وقد طارت شهرة هذه الزاوية ، كزاوية علمية خلال النصف الثاني من القرن العاشر الهجري / 16م في الجنوب كله وتحولت إلى قبلة لطلاب العلم من تافيلالت وسوس والصحراء وبلاد السودان بالإضافة إلى طلبة وادي درعة(35). كانت لسيدي محمد بن مهدي نية صادقة في إفادة المتعلمين وقابلية عجيبة في التدريس(36). تنطلق الدراسة كل يوم بالزاوية مع الفجر ولا تتوقف إلا بعد العشاء الأخيرة، وكانت لهذا الشيخ نظرية خاصة مبسطة ومفيدة وتلتقي في أوجه كثير مع طرق التدريس الحديثة(37) وتقوم هذه النظرية "على تصحيح المتن وحل المشكل وإيضاح المقفل وزيادة غيره ضوره بالمتعلم أكثر من نفعه"(38) وهي نظرية أشاد بها العلماء في كل العصور(39) واعتبرها جل الباحثين المتأخرين ركائز لمدرسة تعليمية، سادت طرائقها في كل جهات الجنوب لسوس ودرعة وتافيلالت ومراكش(40). كانت الدراسة بزاوية بن مهدي تتم على مراحل، وكل طبقة من المتعلمين تتكفل بمن دونها، ولا يبقى للشيخ ابن مهدي إلا الدروس العليا في الفقه والتفسير واللغة وغيرها وتلقى على كبار الطلبة ونبهائهم. عاش الفقيه محمد بن مهدي زاهدا طول حياته إذ عرف عنه إعراضه عن صلات سلاطين عصره من السعديين ،كما كان يرفض ما يقدم له من فتوح من شيوخ القبائل المجاورة لزاويته إذ يرى في ذلك شبهة ألزم نفسه بتجنبها. وقد انتهى الدور العلمي لهذه الزاوية بوفاة محمد بن مهدي سنة 979هـ وهجرة أبنائه وحفدته إلى جهات أخرى من وادي درعة.

3 ـ **زاوية سيدي الناس:** أسست هذه الزاوية على يد الحاج إبراهيم الأنصاري خلال القرن الثامن الهجري / 14م، بمنطقة تامكروت حيث ما تزال بعض أطلالها بالقرب من الزاوية الناصرية الحالية(41) وفي مطلع القرن العاشر الهجري / 16م ، شارط بها أبو القاسم بن عمرو التفنوتي بعد تخرجه من القرويين بفاس(42) وهكذا ما كاد خبر نزول هذا الفقيه السوسي بزاوية سيدي الناس، حتى أصبحت هذه الزاوية كعبة للقاصدين من طلاب العلم من بلاد جزولة وسوس عامة، ودرعة وتافيلالت والصحراء وبلاد السودان. كان أبو القاسم بارعا في فنون كثيرة مع إتقان تام للعربية والفقه والحساب والقراءات(43) وكانت له همة عالية في التدريس حيث كان يخصص جل وقته للطلبة، ولا يكاد ينتهي من تقرير مسألة في فن معين حتى ينتقل لغيرها دون ملل ولا تكرار ، وقد لقب أبو القاسم بالشيخ

لغزارة علمه ووفرة من تخرجوا عليه من أهل درعة وسوس وتافيلالت(43) ومثل محمد بن مهدي كان أبو القاسم الشيخ زاهدا متقشفا، زاهدا في عطاءات وصلات سلاطين عصره متورعا عن الشبهات. وقد توفي هذا الشيخ الجليل سنة 953هـ ودفن بالمقبرة الواقعة بين قصري تامكروت وتازروت حيث لا يزال ضريحه قائما إلى اليوم(44) وبوفاة أبي القاسم الشيخ انقطع العلم من زاوية سيدي الناس.

وهكذا يلاحظ أن الدور العلمي لهذه الزوايا كان ينتهي بانقراض أهل العلم (زاوية سيدي علي) أو بوفاة الشيخ المؤسس (زاوية بن مهدي) أو بوفاة الشيخ المتصدر للتدريس كما هو الحال بالنسبة لزاوية سيدي الناس. وبالرغم من تراجع الدور العلمي لهذه الزوايا فإنها ظلت قائمة في شكلها الاجتماعي كقصر لا يختلف في تنظيماته الداخلية وعلائقه بمن حوله عن باقي قصور وادي درعة كما يتحول سكان الزاوية إلى قبيلة ــ قصر لا تختلف في شكلها ومضمونها عن باقي قبائل القصور بالمنطقة. وما تزال أطلال المدارس العلمية بهذه الزوايا إلى اليوم تحكي ما كان لها من إشعاع علمي في الماضي القريب.

ب . الزوايا الصوفية :

نجحت الطريقة الجزولية بدرعة، بتنصيب محمد بن عبد الرحمان الزيداني ،أحد مقدمي الطريقة بزاوية تاكمادارت كقائد للمجاهدين بسوس سنة 916هـ / 1510م، ويذكر صاحب نزهة الحادي أن محمد بن عبد الرحمان قد انتصر على النصارى، وقد أحدث هذا الانتصار ردود فعل كبيرة في نفوس العامة "فتيمنوا بطلعته وتفاءلوا بطائره الميمون"(46) لكن بالمقابل وقعت بينه وبين بعض الرؤساء "منافرة" أرغمته على العودة إلى وادي درعة. وقد نجح خلال سنتين قضاهما بدرعة في حشد الأنصار وتجميع الأتباع للجهاد والمرابطة، وهكذا لما عاد إلى سوس سنة 1512 / 918م كان محاطا بعشرات من المقاتلين من أهل درعة، فلما اشتد عود الدولة السعدية واستغنت عن المقاتلين من أتباع الطريقة الجزولية من أهل درعة، عاد هؤلاء إلى بلادهم وفي أنفسهم شموخ عمن تقعد عن الجهاد والمرابطة، وفي سياق تمييز أنفسهم عن الآخرين باتوا يعرفون محليا بالمرابطين(47) وأقبلوا على بناء الزوايا الصوفية والتهافت على المشيخة الأمر الذي جعل الشيخ أحمد بن موسى السملالي شيخ تزروالت كثيرا ما كان يسأل زائريه من أهل درعة وبلهجة لا تخلو من التندر "بكم يباع عنكم الشيوخ بدرعة"(48) وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على إقبال شريحة عريضة من "قدماء المجاهدين" على ممارسة التصوف والتظاهر بالصلاح، والتحلي بسيمة المرابط، وقد صحب هذا التهافت بالتظاهر بالصلاح، في وسط تتسم ذهنية سكانه بالغفلة وحسن الظن بالناس(49) حركة واسعة لتأسيس الزوايا الصوفية والتكثير من

الأتباع. إذن فما هي مميزات الزوايا الصوفية؟ وما هي العوامل التي ساعدت على استمرارها ؟ وما هي طبيعة العلاقات التي كانت تربطها بقبائل درعة ؟

إن أهم ما تتميز به الزاوية الصوفية عن الزاوية العلمية هو روح الحيوية التي يتسم به نشاط الزاوية الصوفية، التي ساعدها على الاستمرار، وقابلية التطور والتكيف مع كل المستجدات بعد وفاة الشيخ المؤسس، وقدرتها الكبيرة على التعامل مع محيطها القريب، وأصل هذه الحيوية في مسيرة الزوايا الصوفية يرجع إلى العوامل الآتية :

1 ـ اختيار مكان التأسيس: لم يكن اختيار مكان بناء الزاوية الصوفية اعتباطا ولا عشوائيا بل كان الشيخ المؤسس يتحرى الدقة في اختيار المكان(50) وهكذا نلاحظ أن عددا من الزوايا الصوفية بوادي درعة، قد أسسها أصحابها في ملتقى القوافل التجارية وعلى طول المحاور الطرقية التي تربط واحات درعة بالمناطق المجاورة لها. فزاوية تامكروت التي بنيت وسط واحة فزواطة تراقب ثلاثة منافذ تجارية أساسية فم زاكورة شمالا ،فم تاقات جنوبا وفم تيزنتافيلالت شرقا ومن هنا أمكن لهذه الزاوية الاستفادة من النشاط التجاري بين مختلف واحات درعة، وبين درعة وتافيلالت أو بين درعة وبلاد السودان عبر المنافذ الجنوبية، وقد كان شيوخ الزاوية يوفرون كل لوازم الراحة والضيافة والأمن للقوافل التجارية(51). أما زاوية تينمسلا بواحة تينزولين، فقد أسسها أبو القاسم بن عبد الرزاق في كنف جبل كيسان تتحكم وتراقب الطريق الوحيد بالضفة الشرقية لنهر درعة الذي يربط مزكيطة بباقي وادي درعة، وكل منافذ جبل كيسان التي تربط وادي درعة بتازرين وسكورة وداديس وورزازات.

2 ـ شخصية الشيخ الصوفي: تلعب شخصية الشيخ المؤسس للزاوية الصوفية دورا أساسيا في استمرارية الزاوية بوضع أسس تطورها مع مرور الزمن، فقد كان الشيخ يختار من بين أتباعه من يأنس فيه القدرة على التكلف، والكفاءة في التدبير والحرص على تطوير إمكانات الزاوية المادية وضمان استمرار دورها التصوفي باصطياد المزيد من المريدين والأتباع(52) وقد كان الأتباع المقربون من الشيخ المؤسس يتبارون في الكشف عن مؤهلاتهم طمعا في الفوز بولاية الاستخلاف على الزاوية وبث مبادئ وأوراد الطريقة. وهذه الأوصاف التي قد تتوفر للمرشح لخليفة الشيخ الصوفي، قد لا ينجح شيخ الزاوية العلمية في العثور على تلميذ موهوب يكون بإمكانه استخلاف الشيخ في علمه وتدريسه. وتقدم لنا زاوية تامكروت نموذجا مثاليا بدرعة للزاوية الصوفية التي استطاعت الحفاظ على وضعها لقرنين فأكثر من الزمان فقد كان شيوخ هذه الزاوية منذ تأسيسها على يد سيدي عمرو بن أحمد الأنصاري سنة 983هـ(53) تعتمد مبدأ الكفاءة الشخصية في ولاية الاستخلاف، ولم تتحول إلى مشيخة وراثية إلا مع الناصريين كما سنرى لاحقا. وهكذا فقد اختار شيخ زاوية تامكروت في وقته سيدي إبراهيم بن عبد الله سيدي عبدالله بن حساين

القباب لمشيخة الزاوية بعده وبعد أن كان يزكيه بين الأتباع بقوله: "إذا أراد الله بعباده خيرا يظهر لهم صاحبنا هذا ، يعني سيدي عبد الله بن حساين ويقلده سياستهم"(54) وقبل وفاة الشيخ سيدي عبد الله بن حساين القباب سنة 1045هـ اختار لمشيخة الزاوية أحد المقربين الملازمين له سيدي أحمد بن إبراهيم الأنصاري، من حفدة الشيخ المؤسس لزاوية تامكروت. بدأ سيدي أحمد بن إبراهيم مشيخته بالتخطيط للنهوض بزاوية تامكروت، وهكذا لم يمض على مشيخته إلا وقت وجيز حتى تحولت زاوية تمكروت إلى سوق تجارية كبرى تلتقي بها القوافل التجارية القادمة من شمال البلاد ومن بلاد السودان والصحراء(55). كما تقاطر عليه الراغبون في أخذ الورد الشاذلي من مختلف جهات درعة وسوس وبلاد الصحراء.
ويظهر أن سيدي أحمد بن إبراهيم يريد أن يجعل من زاوية تامكروت مركز إشعاع علمي بعدما طارت شهرتها كزاوية صوفية لتجمع بين وظيفتي التصوف والعلم، فاقترح على الفقيه محمد بن ناصر المشارطة بمسجد الزاوية لتعليم العلوم ونشرها بعدما أخذ الورد عن سيدي عبد الله بن حساين، وجدد العهد على يد خليفته سيدي أحمد بن إبراهيم، وتدل كل القرائن على أن زاوية تامكروت قد حققت طفرة كبرى سواء على مستوى الانتشار الصوفي أو على مستوى الإشعاع العلمي بهذا التعاون بين سيدي أحمد بن إبراهيم الذي عرف كيف يدير سياسة القلوب ومحمد بن ناصر الذي عرف كيف ينمي ملكة العلم في الطلبة المتقاطرين على الزاوية، وقد أثار هذا التطور الكبير الذي عرفته زاوية تامكروت في أيام مشيخة سيدي أحمد بن إبراهيم، جيران الزاوية وخاصة قصر أكني فقرر يحيى بن عمرو التخلص من سيدي أحمد بن إبراهيم الأنصاري فاغتاله سنة 1052هـ. فانفتح باب مشيخة زاوية تامكروت على مصراعيه أمام الفقيه محمد بن ناصر. انتقل أمر زاوية تامكروت إلى الفقيه محمد بن ناصر بوصية من سيدي أحمد بن إبراهيم الأنصاري وتوكيله إياه على جميع أموره من بعده وأمور الزاوية(56) إلا أن الأنصاريين عارضوا تولية الفقيه محمد بن ناصر أمور الزاوية، خاصة أنه اعترف أن سيدي أحمد بن إبراهيم الأنصاري لم يأذن له في تلقين الأوراد(57) فاضطر إلى العودة لمسقط رأسه باغلان بأعلى واحة تَرْنَاتَة، وبعد ثلاثة أعوام وقف عليه الشيخ عبد الله بن حساين القباب في المنام وأمره بتلقين الذكر للأتباع(58) وأطلق يده في تلقين الورد حسبما يراه هو لا كما كان الشيخ بن حساين يلقنه" لأن الهمم قصيرة فيتركوا الجميع".
عاد الفقيه محمد بن ناصر إلى زاوية تامكروت، ولم يصفو له أمر الزاوية إلا بعد ما تزوج السيدة حفصة الأنصارية أرملة الشيخ سيدي أحمد بن إبراهيم. ويبدو أن الأنصاريين لم يوافقوا على زواجه بالسيدة حفصة إلا بعدما تعهد بتولية أحد أبنائها مشيخة الزاوية بعده، وقد مهد لذلك ببشارة من سيدي عبد الله بن حساين الذي أخبر وهو بقيد الحياة أن السيدة حفصة ستلد مولودا ذكرا "يرث سبعة أقطاب"(59) وهكذا يكون الفقيه محمد بن ناصر قد نجح في التفاهم بينه وبين الأنصاريين وبالتالي تولى

مشيخة الزاوية بصفة نهائية. فأعطى للزاوية التامكروتية نفسا جديدا، فركز في بداية الأمر على الخروج بالزاوية من مرحلة التأسيس إلى مرحلة التقعيد ومن الاعتماد في الموارد الاقتصادية على الوعدات والفتوحات وما يأتي به الأتباع إلى ما يمكن تسميته بالاكتفاء الذاتي، وهكذا قام الفقيه محمد بن ناصر باستصلاح بعض الأراضي الزراعية(60) لضمان مدخول قار للزاوية بعد مرحلة من الفقر المدقع ولم ينته القرن الحادي عشر الهجري / 17م حتى أصبحت زاوية تامكروت أكبر زاوية في الجنوب المغربي على الإطلاق وبدأت مرحلة التوسع في جهات أخرى من المغرب بعدما تحولت مشيختها إلى مشيخة وراثية، وبدأت ملامح الطريقة الناصرية تطغى على الطريقة الغازية التي تنتسب إليها زاوية تامكروت على عهد سيدي عبدالله بن حساين القباب وسيدي أحمد بن إبراهيم الأنصاري(61) كما تحولت إلى أكبر سوق تجارية جنوب الأطلس تلتقي فيها القوافل التجارية من كل الآفاق والأصقاع.

3 ـ **مرونة الأذكار**: من العوامل التي ساهمت أيضا في استمرار الزاوية الصوفية بدرعة مرونة الذكر، فقد كان شيوخ الطرق الصوفية بهذه المنطقة يراعون العوامل النفسية والقدرات العقلية لأتباعهم ومريديهم، فكانوا يعينون لكل فئة من الناس ما يصلح لها من الأذكار، فالطالب الذي يحفظ القرآن الكريم له نصيب من الذكر أقل حصة العامي وحصة المرأة من الذكر أقل من الرجل وأدنى مراتب الورد عددا معينا من الاستغفار والهيللة وأعلاها أو لا يفتر لسان المريد عن الذكر في كل وقت وحين(62)وتتفق الزوايا الصوفية بدرعة على التدرج في الأذكار، كما يتضح ذلك من أوراد الزاوية البونية بابني علي وزاوية تينمسلا القادرية بالإضافة إلى زاوية تامكروت.

4 ـ **فتح باب الرجاء أمام الأتباع**: كان غالبية شيوخ الطرق الصوفية ومقدمي الزوايا يتمتون بذكاء فيه حدة، وحدس قوي يهتكون به سدافة النفوس وسجوفها، وفطنة يكشفون بها ما خفي من الأمور، وهدوء في الطبع لا تحركه الهزاهز، وقدرة عالية على استتكاه مكنونات النفوس البشرية، هذه الصفات كانت تؤهل شيوخ الطرق دون غيرهم للتحكم بهمة عالية في إدارة إرادة المريدين ، الذين يختلفون أصلا من حيث الانتماء القبلي، ومن حيث تراتب الشرائح الاجتماعية، والعمل بدأب وحدب على تشذيب غلواء الروح البدوية في أعماق نفوسهم، والانتقال بهم من سلوك تغلب عليه الأنانية والانفرادية إلى سلوك يرتكز على التسامح وروح الجماعة. وفي هذا الإطار كان شيوخ الطرق الصوفية بزوايا وادي درعة يفتحون باب الرجاء والخلاص إمام مريديهم وذلك من خلال ما كانوا يبثونه في الأتباع من أقوال تفتح باب الرجاء واسعا على مصراعيه أمام كل الذين يشعرون أنهم أسرفوا على أنفسهم فيما سلف من العمر ، وأن طريق الخلاص هو الالتحاق بهذه الطريقة الصوفية أو تلك. ومن حسن حظنا ، أن مثل هذه الأقوال لا تزال تحتل حيزا هاما

في كتب المناقب لزاويتي تامكروت وتينمسلا. فقد كان مَحمد بــن نــاصر ، شــيخ زاوية تامكروت (الشيخ الثالث في سلسلة شيوخ زاوية تامكروت) ينقل عن شــيخه سيدي أحمد بن إبراهيم قوله: أن الشيخ سيدي عبد الله بن حساين القباب لما قلـــده الله سياسة قلوب العباد، أخذ عهدا من ربه أن لايسوق إليه إلا من كتبه مقبولا عنـده" وكان يقول أيضا: من وقع عليه طابعنا فقد تهنينا منه، ومن أحبنا في الله شفعنا لـــه عنده تعالى ونشفع في غيره من المحبين"(63) ولما تولى مَحمد بن نــاصر مشــيخة زاوية تامكروت، كان الفقراء من مريدي هذه الزاوية يتعلقون بأهذابه للانتفــاع بــه ظاهرا وباطنا على حد تعبير العلامة أبي علي الحسن اليوسي(64) وكان ابن نــاصر يذكر للفقراء حديث من رأى من رأني إلى سبعة ضمنت له الجنة... بشرط أن يقول كل لمن رءاه أشهد أني رأيتك ... ويعلق العلامة اليوسي على ذلك بقوله أشهد أننــي رأيت الإمام بن ناصر وأشهدته(65) ويرى صاحب طلعة المشــتري أن مثــل هــذا يذكر على طريق الرجاء وليلا يفوت المسلمين ذلك الخير إن حققه الله وهـــو أمــر جائز لا يمنعه عقل ولا شرع (66). وقد كان محمد بن ناصر يؤكد لأتباعـــه "بــأن المتعمش في دينه المتعلق بالطريقة الغازية ـ الناصريـــة ... خــير مــن الحــازم المتعلق بغيرها"(67). أما سيدي أحمد بن عبد القادر التستاوتي(68) فقد ألـــح كثــيرا على الشيخ مَحمد بن ناصر أن يضمن له من الله حسن الخاتمة رغم إسرافه علـــى نفسه وإغراقه في المعاصي ، وأن يتكفل له بسعة الـــرزق ... وبـــالرغم مــن أن الشيخ مَحمد بن ناصر قد أكد لابن عبد القادر أنه رفع أمره إلى الملــك العــلام ذي الجلال والإكرام رجاء قضائها ، فإن أحمد بن عبد القادر بقي في نفسه شيء ممـــا كان يقترفه من المعاصي لذلك وجه سؤالا إلى الشيخ مَحمد بن ناصر عن المعصيــة وهل تحول بينه وبين أصحابه ، فأجابه الشيخ بأن المعصية لاتحـــول بينـــي وبيـــن أصحابه ومن صدرت منه هفوة فليتداركها بالتوبة والحبل متصل بيني وبينه وإنمـــا يضرنا الإصرار(69) أما شيوخ زاوية تينمسلا فقد كانت تصدر منهم أقوال تمجــها الفطرة السليمة(70) فقد ورد في كتيب"هدية السرور من الملك الخلاق"(71) أن مـــن زار ضريح أبي القاسم ابن عبد الرزاق بزاوية تينمسلا خرج من ذنوبه كيوم ولدتــه أمه، ومن مات يوم زيارته مات شهيدا ... وينسب إلى أبي القاسم بن عبد الـــرزاق أنه كان يقول : تالله لا يدخل النار من قال أنـــا صـــاحب أبـــي القاســم بــن عبـد الرزاق(72). وبالرغم من أن أهل العلم يبرؤون شيوخ التصوف مـــن مثــل هــذه الأقوال لكون بعضها يصادم ظاهر الشرع ، وأن بعضها قــد يكــون ملفقــا عــن الشيوخ الأوائل فإن فئات عريضة من مريدي الزوايا الصوفية ، كانوا يـــرون فـــي مثل هذه الأقوال التي تفتح أمامهم أبواب الرجاء والأمل ما يشجعهم على الاندفـــاع إلى أحضان هذه الزاوية أو تلك أملا في التخلص مـــن الأوزار التـــي اقترفوهـــا، ورجاء في باب التوبة الذي يظل مفتوحا على مصراعيه أمام كل المســرفين علـــى أنفسهم(73) ويلتمس أهل العلم الأعذار لسكوت شيوخ التصوف عن مثل هذه الأقــوال

المصادمة لظاهر الشرع، في كون العديد من الفقراء كانوا من المسرفين على أنفسهم، وبفضل باب الرجاء المنفتح أمامهم تاب الله عليهم والكثير منهم أضحى من كبار شيوخ التصوف أصلح الله على يديهم العشرات من المريدين والأتباع. وهكذا نلاحظ أنه في الوقت الذي كانت فيه الزوايا العلمية تتقوقع على نفسها بموت العالم المؤسس وانقراض أهل العلم بها ، كانت الزوايا الصوفية تضع لنفسها إطارا صوفيا يرتكز على بعض الأدبيات والأذكار الخاصة يتجدد مع كل شيخ يتولى مسؤولية تدبير شؤون الزاوية، وقد كان شيوخ التصوف يحدون في تأثيل الأملاك وتحبيسها على مرافق الزاوية حتى يتأتى لهذه الأخيرة أن تقوم بكل وظائفها الصوفية والاجتماعية والإحسانية والعلمية أحيانا. بفضل هذه العوامل التي حاولنا إبرازها، تمكنت الزوايا الصوفية بواحات وادي درعة من خلق مجال حيوي يحمي وجودها ويضمن لها الاستمرار ، وهذا ما سمح لعدد من شيوخ الزوايا الصوفية من التفكير في توسيع مجال نفوذها والإكثار من الأتباع والمريدين ، وفي هذه المرحلة من مسيرة الزوايا الصوفية ، ظهرت بدرعة الزاوية ـ الدار فكيف ظهرت هذه الزاوية ؟ وما هي وظائفها ؟

II. مرحلة توسيع النفوذ وظهور الزاوية. الدار :

من الظواهر التي أفرزها المجتمع بواحات وادي درعة خلال القرن العاشر الهجري /16م هو تفاهت جل "المرابطين" العائدين من جبهات القتال ضد المسيحيين، وبعدما استغنت الدولة السعدية عن خدماتهم، هو التظاهر بمظهر الشيخ الصوفي مجمل العباءة والعمامة والسبحة، والإقبال على تأسيس الزوايا في إطار الطريقتين الجزولية والزروقية ، الأمر الذي جعل الشيخ سيدي أحمد بن موسى السملالي يسأل زواره من أهل درعة"بكم يباع عندكم الشيوخ يا أهل درعة"؟. ولا مشاحة إذا قلنا بأن هذه الزوايا قامت بدورها كاملا في تأطير المجتمع تحت نظر سلطة المخزن السعدي وكانت شفاعتهم لا ترد وكانت وساطة بعض شيوخ التصوف، بين القبائل وممثلي المخزن السعدي بدرعة على عهد عبد الله الغالب (983 – 964) واحمد المنصور(1012 – 983) فاعلة(74) وقد ظهر أثر ذلك في استتباب الأمن وازدهار الحركة الاقتصادية حيث كانت الدولة تجبى من واحات الوادي دخلا سنويا قدر بحوالي مائة وخمسين ألف مثقال(75)، وقد ساهمت ظروف الاستقرار السياسي والرخاء الاقتصادي رجال الزوايا بالوادي على تعزيز مواقعهم في الأوساط القبلية داخل الوادي وخارجه، وكانت زاوية تينمسلا بواحة تينزولين أهم من استفاد من هذا الوضع حيث امتد مجال نفوذها إلى واحة فم زكيط وتازرين وبلاد مكونة ودادس(76) وبعد وفاة أحمد المنصور سنة 1012هـ / 1603م. اضطربت أحوال وادي درعة، فانفلت زمام السلطة من يد رجال المخزن السعدي وعجزت الزوايا عن القيام بدورها التقليدي في تأطير المجتمع والتخفيف من سورة

الفتن بين القبائل بل إن بعض الزوايا كان هدفا لهجومات بعض سلاطين الدولة السعدية ومن يعمل لحسابهم من الولاة والعمال بحثا عن الذخائر والأموال(77) ونتيجة لهذه الأوضاع المضطربة فإن نشاط جل الزوايا بدرعة بهمود تام خلال النصف الأول من القرن الحادي عشر الهجري / 17م ولم يبق من الزوايا إلا الاسم وذكريات باهتة في ذهنيه بعض الأتباع. وبعدما تمكن الأشراف العلويون من ضبط أحوال درعة ابتداء من سنة 1051هـ / 1640م(78) استيقظت بعض الزوايا من سباتها وبعد مرحلة من إعادة الهيكلة وتجديد مراسم الأسلاف، عمد شيوخ الزوايا إلى بعث الروح في طرقهم بتجديد العهد مع قدماء المريدين، وقد برزت خلال هذه الفترة ثلاثة زوايا بدرعة، زاوية تامكروت بفزواطة ، وزاوية تينمسلا، وزاوية تينردن بواحة تينزولين ، إلا أن هذه الأخيرة استسلمت لمصير من سبقها وتحولت إلى زاوية هامدة بدون نشاط يذكر، ولم يبق في الساحة إلا زاويتي تامكروت وتينمسلا. ونستشف من بعض إشارات صاحب الدرر المرصعة، أن تنافسا حادا قد اندلع بين الزاويتين(79) وهذا شيء طبيعي حيث تسعى كل زاوية إلى توسيع مجال نفوذها بمختلف واحات الوادي(80).

ركز شيوخ هاتين الزاويتين ، في إطار توسيع مجال نفوذهم على خلق مجموعة من الخلايا الصوفية في كل قصر بدرعة يوجد لهم به أتباع، وكان مقر هذه الخلية الصوفية يعرف محليا بدار الزاوية، تمييزا لها عن باقي دور القصر، وغالبا ما يكون موقع الزاوية ـ الدار بجانب مسجد القصر حيث تتمتع بنفس الحرمة التي يتمتع بها المسجد من تقدير وتبجيل. كانت الزاوية ـ الدار تقوم بعدة وظائف في آن واحد ، فقد كانت تتخذ مسيراحا للشيوخ أثناء سياحتهم الصوفية(81) وجولاتهم التفقدية، كما تستقبل كبار الأتباع وأفراد أسرة الشيخ(82) ويشرف على تدبير أمور الزاوية ـ الدار مقدم أو وكيل يعينه الشيخ من بين قيدومي مريديه في القصر أو القبيلة، ويحدد الشيخ للمقدم الدور الذي يجب عليه القيام به فقد ورد في إحدى رسائل الشيخ محمد بن ناصر إلى مقدم الفقراء بقبيلة متوكة(83) "وأوصي المقدم أن يعظ الفقراء ويذكرهم وينصحهم ويعود مرضاهم ويشهد جنائزهم ويحفظ غائبهم ويسعى في قضاء حوائجهم وأن يسعى كل السعي في مصالحهم، وأن لا يرى لنفسه فضلا عليهم وأن لا يشح عليهم بشيء مما حوته يده(84) وبالمقابل فإن الشيخ أوصى الفقراء "أن يتأدبوا مع المقدم ويعظموه ويحترموه ويطيعوه فيما يأمرهم به وينهاهم عنه ، وأن يخدموه فإنه وكيل الشيخ فمن أحبه فبحب الشيخ أخيه ، ومن أبغضه فيبغض الشيخ أبغضه، ومن عصاه فكأنما عصى الشيخ ، ومن عصى الشيخ فقد عصى الله ورسوله"(85) وهكذا نلاحظ أن الشيخ يحرص على الانضباط والانصياع بين صفوف الفقراء وربط عصيان الفقراء لأوامر المقدم بعصيان الشيخ وأن عصيان الشيخ عصيان لله ورسوله. وقد كان المقدم يحد ويجتهد لاستقطاب المزيد من المريدين والأتباع لطريقة شيخه. وكان المقدم يترأس قراءة الورد

الجماعي بدار الزاوية مرة في الصباح وأخرى في المساء ويجد في تحصيل الموارد الاقتصادية للزاوية الأم بحض فقراء القبائل على المساهمة في ذلك بدفع ما يستطيعون مما يسر الله من فتوح(86) نقدا أو عينا. وقد كانت هذه الفتوحات تتجمع في دار الزاوية تحت نظر المقدم ثم يستأذن شيخ الزاوية في نقلها إلى الزاوية الأم حيث المقر الرسمي للشيخ الذي بقيد الحياة ، وقد يأمر الشيخ المقدم بصرف جزء مما تجمع لديه على فقراء الزاوية وضعفائها. وهكذا تمكنت زاوية تامكروت وزاوية تينمسلا من توسيع مجال نفوذهما خلال العقود الأخيرة من القرن الحادي عشر الهجري/17م في كل واحات وادي درعة، إذا لا يكاد يخلو قصر من قصور الوادي بمختلف الواحات من وجود "دار للزاوية" تابعة لزاوية تامكروت أو لزاوية تينمسلا. وبعدما تغيرت الظروف الاقتصادية لأسرتي الناصريين بتامكروت والقادريين بتمسلا ، وأصبح لكلتا الزاويتين أملاك عريضة في بعض واحات الوادي، أوعز الشيخ محمد بن ناصر إلى بعض أبنائه بتأسيس زوايا صغيرة قائمة الذات بنفسها، وتنحصر وظائفها في رعاية أملاك الزاوية الأم ، فأسس محمد الصغير بن محمد بن ناصر زاوية البركة(87) وقد حشد الشيخ جملة من عبيد الزاوية إلى جانب ابنه للقيام بالأعمال الزراعية في الأملاك أثلها الشيخ ببلاد قبيلة أولاد يحيى بقطة(88) قصرى قينسيطة(89)، وفي نفس الوقت أسس الشيخ زاوية الفتح (90) وأنزل بها جماعة أخرى من عبيد الزاوية للعمل في خدمة الأراضي الفلاحية التي أثلها الشيخ ببلاد أولاد الحاج من قبيلة الروحا(91). أما شيخ زاوية تينمسلا في وقته (92) فقد حاول جهته مسايرة توسع زاوية تامكروت ، فأسس بواحة ترناتة زاويتي سيدي اعمرو بن أحمد العليا والسفلى(93) وزاويتي إخف نوزرو ورأس الحجر، وزاوية الموضع بواحة مزكيطة(94) إلا أن زاوية تينمسلا لم تتمكن من الصمود أمام التوسع الجارف لزاوية تامكروت نظرا للإشعاع العلمي الكبيرة لهذه الأخيرة.

وبعد هذا الانتشار لزاوية تامكروت وتينمسلا بواحات درعة تطلع شيوخ الزاويتين ومقدميها إلى توسيع مجال نفوذهما إلى خارج المنطقة. ونستشف من خلال الوثائق التي بين أيدينا أن زاوية تينمسلا قد نجحت في تركيز نفوذها بمنطقة فم زكيط (بإقليم طاطا الحالي) وجهات سوس والصحراء وامتد نشاط مقدميها إلى بلاد السودان الغربي(95) وركزت نفوذها بقوة ببلاد أيت عطا خاصة بتازرين وبومالن دادس وقلعة مكونة، وامتد نشاطها في فترات لاحقة إلى جهات أيت عتاب وبني عياض بالأطلس المتوسط وإلى شمال مدينة فاس وبشكل خاص بقبائل الحياينة(96).

أما زاوية تامكروت فقد كان مجال نفوذها أوسع بكثير من مجال زاوية تينمسلا، ويرجع ذلك بالأساس إلى نشاط زاوية تامكروت الذي يجمع بين تلقين الأوراد الصوفية والإشعاع العلمي ، وقد بدأ ذلك مع الشيخ محمد بن ناصر الذي كان يستغل وجود بعض العلماء المتخرجين عليه، واستقرارهم في جهات مختلفة من

المغرب مثل سوس وتافيلالت والأطلس المتوسط وشفشان ومراكش، فكان يحضهم على "قبول من أتاهم صادقا، بنية الدخول في زمرة فقراء زاوية تامكروت... ويحذرهم من الذين يأتون للإنتساب لهذه الزاوية وطريقتها لاقتناص الأغراض الدنيوية بل كان يأذن لبعضهم مثل أبي علي الحسن اليوسي وأبي العباس التستاوتي بتلقين الورد الناصري للأتباع الجدد(97). ويستشف من مضمون الرسائل التي بعثها الشيخ محمد بن ناصر إلى أتباعه بمختلف جهات المغرب أن نفوذ زاوية تامكرت يكاد يغطى التراب الوطني كله ، بل امتد في بعض الأحيان إلى خارج الحدود، إذ يوجد لهذه الزاوية خلال العقود الأخيرة من القرن الحادي عشر أتباع بتلمسان وبالسودان الغربي ولكن أتباع الزاوية تمركزوا بشكل خاص بسوس نظرا للعدد الكبير من السوسيين المتخرجين من زاوية تامكروت والذين ساهموا في نشر مبادئ الطريقة وأورادها بمختلف جهات سوس(98) وقد كان من نتائج هذا الانتشار للطريقة الناصرية ــ الغازية ، وامتداد نفوذها بجهات مختلفة داخل المغرب وخارجه، تدفق الأرزاق على الزاوية بتامكروت وعلى الزوايا التابعة لها هنا وهناك. وأصبح الشيخ محمد بن ناصر يعيش في بحبوحة وفيض من النعم بعد مرحلة من الفقر المدقع، وتحولت تامكروت إلى مركز تجاري تقصده القوافل من كل الجهات، وقد كان محمد بن ناصر يدرك أهمية هذا التحول الاقتصادي للزاوية وأثر ذلك على استمرار دورها العلمي والصوفي، فكان يحرص على توفير اللوازم الضرورية لقوافل التجار بالزاوية وتوفير ظروف الأمن للتجار داخل واحات الوادي وخارجه، بتكليف بعض أتباعه من قبائل أولاد يحيى والروحة لحماية الأمن العام في الطرقات(100) وكان لايبخل على نزلاء زاوية تامكروت من المريدين والفقراء والعلماء وطلبة العلم مما أفاء الله عليه من النعم، "وكان يقسم على جيرانه وساكني زاويته ومن في معناهم من أهل درعة وغيرهم الضحايا كل عيد والصوف كل عام والسمن والزيت(101) . وقد كان الشيخ محمد بن ناصر يتوصل بهذه المواد وغيرها من فروع الزاوية المنتشرة بمختلف جهات المغرب.

وفي سنة1085هـ / 1675م انتقل الشيخ محمد بن ناصر إلى الرفيق الأعلى وترك وراءه زاوية تامكروت وقد تمكنت في الأرض وباتت تتوفر على كل اللوازم الضرورية للاستمرار واستقطاب المزيد من الأتباع وتوسيع مجال نفوذها داخل المغرب وخارجه وهذا ما قام به الشيخ أحمد بن ناصر الخليفة، الذي حل محل أبيه وبوصية منه على رأس الزاوية وعمره لم يتجاوز بعد السابعة والعشرين . بدأ سيدي أحمد بن ناصر الخليفة أيام مشيخته بتوجيه رسائل التعزية في وفاة الشيخ محمد بن ناصر إلى مقدمي زوايا الشيخ وكبار تلامذته وأتباعه بمختلف جهات البلاد، وأخبرهم أنه خليفته ووصيه على أمور الطريقة "قلبوا دعوته ويمموا عقوته ... فقام بأمر الزاوية أتم قيام حتى بقيت الدار كما كانت لم يفقد منها إلا شخص الشيخ محمد بن ناصر"(102). وبالرغم من أن أحمد بن ناصر يعتبر أصغر أخوته

فقد كشف عن كفاءة عالية في تدبير أمور الزاوية والسير بالطريقة على النهج الذي رسمه والده، ولا مشاحة إذا قلنا إن زاوية تامكروت قد عرفت أوج عزها ومجدها على عهد هذا الشيخ بل إن زوايا درعة خارج إطار زاوية تامكروت قد خفت نورها وهمد صوتها. إذن فما هي أهم الأعمال التي قام بها الشيخ أحمد بن ناصر لإتمام مسيرة أبيه في تطوير أوضاع زاوية تامكروت وتوسيع مجال نفوذها ؟

نلاحظ من خلال الرسائل التي وجهها الشيخ أحمد بن ناصر إلى كبار تلامذة والده مثل أبي الحسن اليوسي بالأطلس المتوسط ، وأحمد بن عبد القادر المباركي بزعير وغيرهما أنه أصبح يتحدث عن الطريقة الناصرية، وبذلك يكون قد تجاوز من حيث الشكل ما كان يسميه والده بالطريقة الغازية التي تنتمي إليها زاوية تامكروت في بداية أمرها(103). كانت زاوية تامكروت في عهد الشيخ محمد بن ناصر تقوم على نشر العلم وبذله لكل من طلبه من رواد الزاوية وبث مبادئ التصوف وإرشاد الناس، وقد استوعب الشيخ سيدي أحمد بن ناصر أهمية النشاط العلمي في الحفاظ على مكانة زاوية أبيه وسمعتها بهذه الأصقاع الدرعية ، خاصة أن عددا من أبناء الزوايا بواحات الوادي إبانه، لم يكن لهم أي نشاط علمي يذكر، يمكن أن ينافس زاوية تامكروت في مسيرتها العلمية كما أن روح التصوف قد همدت في أعماق نفوسهم "بعدما سلب عنهم رداء الصلاح وخرجوا من ربقته وصاروا في جملة العوام"(104) لذلك حرص الشيخ أحمد بن ناصر على توفير اللوازم الضرورية لطلبة العلم، الذين يتدفقون على تامكروت من كل الجهات. فاستحدث خزانة خاصة بالكتب، وشحنها بمئات من المؤلفات التي كان يشتريها من أسواق المغرب وأسواق المشرق، وقد ضرب في شرائها "رقما قياسيا لم يلحق شأوه فيه أحد من شيوخ الزاوية الناصرية"(105) ووضع طريقة خاصة لاستعارة الكتب من الخزانة ، وجعل لكل صنف من كتب العلم علامة تميزه عن غيره، وكان يلح على طلبة العلم من أهل الآفاق أو من سكان الزاوية على صيانة الكتب وحفظها وحمايتها من التلف(106) وكان يضرب المثل بنفسه في صيانة الكتب والمحافظة عليها. وقد كان الشيخ يترأس بنفسه حلقات التدريس بمسجد الزاوية بحضور الجم الغفير من العلماء النازلين بتامكروت. ازداد نفوذ الزاوية الناصرية اتساعا في عهد الشيخ سيدي أحمد الخليفة وظهرت مجموعة أخرى من الزوايا بمختلف واحات درعة(107) وكان يزود كل زاوية بمسجد وخزانة ويحبس عليها الأملاك الكافية للقيام بشؤونها ، وقد امتد إشعاع الطريقة إلى خارج المغرب وصار لها أتباع في بلاد الحجاز والقاهرة والاسكندرية وليبيا وتونس وفي غريس ـ تلمسان وفكيك وتبشار والقنادسة(108).

إلا أن هذا التوسع والانتشار الذي عرفته الطريقة الناصرية صحبه تدفق كبير في الفتوحات والوعدات العينية والنقدية على الزاوية الأم بتامكروت وعلى فروعها بمختلف الجهات. ورغم أن الشيخ أحمد بن ناصر لم يكن يبخل على إخوته ومقدمي الزوايا مما أفاء الله عليه من خيرات ، فإن هذا الفيض في الأرزاق كان وراء

بعض المشاكل التي واجهت الشيخ أحمد بن ناصر، سواء مع إخوته بتامكروت أو مع مقدمي بعض الزوايا النائية(109) وفي هذا الصدد يذكر صاحب الدرر أن سيدي علي بن محمد بن ناصر وقعت بينه وبين أخيه سيدي أحمد الخليفة ملاسنة ومنافرة أدت إلى ارتحال سيدي إلى سوس حيث أسس زاوية خاصة به بأولوز برأس الواد، أما الأخ الأكبر للشيخ أحمد بن ناصر سيدي محمد لكبير فقد هاجر إلى الأطلس المتوسط حيث أسس زاويته بتامسكورت(110) وكان من شأن هذه الزوايا الفرعية أن تؤثر على مدخول الزاوية الأم. لم يكن بإمكان الشيخ أحمد بن ناصر ، ممارسة مراقبة تامة على كل الزوايا المنتشرة هنا وهناك خارج واحات درعة، كما أنه من الصعب عليه التحكم في الوكلاء والمقدمين الذين تضاعفت أعدادهم ، على ما كان عليه الأمر في عهد والده، ورغم أن الشيخ أحمد بن ناصر، كان يسمح لبعض الوكلاء بالتصرف في الفتوحات والوعدات والإنفاق منها على ضعفاء فقراء الطريقة، سيرا على ما رسمه والده، فإن بعض المقدمين لم يكونوا يترددون في التمرد على الشيخ أحمد بن ناصر، ومن هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر، مقدم الزاوية الناصرية بالقنادسة بالصحراء الشرقية. فقد كان للشيخ أحمد بن ناصر أتباع كثيرون بين قبائل هذه الجهات، فأسس الشيخ فرعا لطريقته بالقنادسة، وعين ابن أبي زيان القنادسي مقدما على هذه الزاوية وأذن له في تلقين الأوراد والإشراف على تجميع الفتوحات والوعدات التي تقدمها القبائل برسم الزاوية الناصرية. وكان الشيخ أثناء رحلاته الحجية يتوقف بهذه الزاوية للاستراحة والتزود بالمؤونة الضرورية للسفر من القنادسة إلى طرابلس الغرب. وهكذا توقف الشيخ أحمد بن ناصر أثناء رحلته الحجية الأخيرة سنة 1121هـ/1709م بزاوية القنادسة كعادته، فوجد مقدم الزاوية الناصرية بالمنطقة في حالة تمرد على الطريقة الناصرية، ويذكر الشيخ أحمد بن ناصر، أن مقدم الزاوية ابن أبي زيان القنادسي نصب نفسه شيخا وجلس للمريدين والأتباع في مجلس الخصوصية وتلقين الأوراد.

لم تكن حركة ابن أبي زيان القنادسي لتروق الشيخ أحمد بن ناصر لما يشكله هذا المقدم من سابقة خطيرة ولاستحواذه على فتوحات الزاوية الناصرية التي يقدمها أتباع الطريقة بالمنطقة، لذلك حاول معالجة هذا التمرد بطريقة تضمن بقاء هذا المقدم على ولائه للناصريين، ويظهر أن الشيخ أحمد بن ناصر لم يفلح في ترويض المقدم ابن أبي زيان وإقناعه بالرجوع إلى أحضان الطريقة الناصرية لذلك اتهمه بأنه "ضل وأضل، وزل وأزل، وأنه رد النصيحة ولم يقبلها" فلم يبق أمام الشيخ إلا عزله "حسما لمادة الغرر" ونهاه عن تعاطي تلقين الأوراد"(111) وبعدما تأكد للشيخ أحمد بن ناصر أن ابن أبي زيان قد شرد عن الطريقة الناصرية، وأنه استقل بنفسه وتنصب شيخا للمريدين بهذه الجهات، حاول التخفيف من هذه الصدمة فبرز عزله بأن الداعي لذلك هو الخوف عليه من "سوء العاقبة إذ كذب على الله وافترى

واختلق واهترى...وهذا كله هو الحامل على عزله لا نفاسة عليه في شيء ما، نصحا له خاصة ولجميع المسلمين عامة"(112).
لم تكن حالة ابن أبي زيان القنادسي في التمرد على الشيخ أحمد بن ناصر، فريدة في هذه الفترة الأخيرة من عهد هذا الشيخ، بل ظهرت حالات أخرى بمراكش وسوس ودرعة نفسها. ففي مراكش شردت جماعة من فقراء الطريقة الناصرية عن الشيخ، وقررت الانسحاب من الطريقة والانضمام إلى غيرها، ورغم النصيحة التي قدمها للجماعة المنشقة أحمد بن عبد القادر التستاوتي من خلال رسالة موثرة، وما قام به مقدم الزاوية الناصرية بمراكش محمد بن عبد الله الحمري لإعادة الجماعة إلى صفوف الطريقة، فإن أفراد الجماعة قد صمموا على التمرد ونبذ ورد الشيخ تبعا لما سولت لهم أنفسهم. ولتخفيف وطأة هذا التمرد على الشيخ أحمد بن ناصر فإن المقدم حدد هويتهم إذ منهم دباغ" حاد عن الطريق وزاغ " و"الباقون من الغوغاء الأخلاط الذين لا يعتد بهم في حل ولا رباط "(113).
أما في تامكروت فقد وصل التمرد أوجه مع الفقيه الشيخ الحسين الشرحبيلي، الذي نصب نفسه شيخا على الطريقة الناصرية بتامكروت بعد وفاة الشيخ سيدي أحمد بن ناصر سنة 1129هـ/ 1717م، وذكر أن الشيخ استخلفه بعهد منه قبل وفاته بقليل، إلا أن الناصريين الذين يرون في خروج المشيخة من أيديهم، حرمانهم من "الفتوحات" التي تتدفق باستمرار على الزاوية، عارضوا الفقيه الشرحبيلي، واتهموه بالكذب وأن الشيخ لم يوص له بالخلافة والمشيخة على الزاوية(114) ولم يتوقف هذا الصراع إلا بعد تدخل مولاي الشريف بن إسماعيل، خليفة السلطان على درعة، الذي حكم لصالح الناصريين، ثم خير الشرحبيلي بين مغادرة تامكروت أو النشر بالمنشار فاضطر الفقيه إلى التنازل قسرا عن المشيخة والرحيل مع مناصريه عن تامكروت(115) حيث عين مولاي الشريف موسى بن محمد الكبير الناصري شيخا على رأس الزاوية. ومن عواقب هذا الصراع عن المشيخة بالزاوية الأم، أي عددا من المقدمين على فروع الزاوية الناصرية بسوس استقلوا بأنفسهم واستحوذوا على الوعدات والفتوحات التي كانت القبائل تقدمها برسم زاوية تامكروت، ولم يتورع صاحب الدرر المرصعة، وهو ابن الشيخ موسى الناصري ، بوصف هؤلاء المقدمين المستقلين أو المتمردين "بالكفرة الفجرة الذين استولوا على ما للزاوية من أملاك ولم يعد يصل إلى شيء من الزرع والزيت والحديد والنحاس"(116).
وكخلاصة عامة يمكن القول بأن الزوايا بواحات وادي درعة قد قامت على أنقاض الربط القديمة وحلت محلها في تأطير القبائل بالوادي. وأن هذه الزوايا في أوج عزها خلال القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين 16 و17م قد ساهمت في أحياء الحركة العلمية بالوادي ، كما أن إشعاعها الصوفي قد تجاوز بلاد المغرب إلى ما جاورها مثل الجزائر والسودان الغربي، وفي بعض الأحيان إلى المشرق العربي خاصة بلاد الحجاز ومصر.

الهوامـــــش :

1)ـــ حول هذه الربط القديمة بوادي درعة أنظر :

ـــ المرحوم محمد المنوني : حضارة وادي درعة من خلال النصوص والآثار. دعوة الحق ، الســـنة 18ع 2 ســـنة 1973 ، ص: 133 ـــ 134. ويظهر أن هذه الربط لها علاقة مباشرة بانتشار المساجد والتعليم الديني منـــذ فجـــر الإسلام بجنوب المغرب حيث ورد في البيان المغرب لابن عذاري المراكشي أن عقبة بن نافع الفهري أثنـــاء ولايتـــه الثانية سنة 62هجرية وصل إلى درعة وأسس بها مسجد (البيان المغرب ج1 ص :27) وقد عزز موسى بن نصير وضعيـة المساجد بالمنطقة في نهاية العقد التاسع من القرن الأول الهجري (الاستقصا ج 1 ، ص : 96).

2)ـــ مؤسس الطريقة الجزولية هو الشيخ محمد بن عبد الرحمان بن سليمان الجزولي المتوفى سنة 870 هجرية، ويتصـــل سند الطريقة الجزولية بأبي الحسن الشاذلي عن طريق محمد أمغار بتيط نفطر (ممتع الأسماع :38).

3) ـــ الطريقة الزروقية نسبة إلى الشيخ أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي الشهير بزروق المتـــوفى ســـنة 899 ، ويتصل سند الطريقة الجزولية بأبي الحسن الشاذلي عن طريق الشيخ أبي العباس أحمد بن عبد القادر بن عقبـــة (الزاويـة الدلائية ص:1 ،ص:50) .

4) ـــ تمكنا من إحصاء عدد الزوايا بدرعة من أفلاندرى إلى محاميد الغزلان أي على مسافة تقدر بحـــوالي 200 كلـــم، فكان عددها حوالي 61 زاوية دون اعتبار الزوايا ـــ الدور التي توجد داخل مختلف قصور الوادي أنظر :

ـــ أحمد البوزيدي : التاريخ الاجتماعي لدرعة : البيضاء ـــ 1994 ، ص:.328 – 326

5)ـــ محمد حجي : الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي ،ط I ـــ الرباط 1964 ـــ ص :.23

6)ـــ أحمد البوعياشي : حرب الريف التحريرية ومراحل النضال طنجة : 1974 ـــ ص : .152

7)ـــ عبد الهادي التازي : المذهب المالكي كشعار من شعارات الدولة المغربية . ندوة الإمام مالك ـــ فـــاس ، أبريـــل 1980 ، ص: .108 - 87

8)ـــ إبراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ. الدار البيضاء : 1965 ، ط 1 ـــ ج I ، ص : .189

9)ـــ نقصد بذلك الفئات التي ترتاد الرباط طلبا للعلم والفئات التي تقصده فرارا من الجوع .

10) ـــ المرابطون : أي الذين كانوا يلازمون الرباط إما للجهاد أو العبادة أو طلب العلم. وقد انتشرت هذه التســـمية بشكل كبير في الجنوب المغربي لانتشار الزوايا والربط في عدة مناطق من الواحات الممتدة جنوب جبال الأطلس. ويقـــال هذه التسمية في اللهجة الأمازيغية الصنهاجية اسم إكـــرامن ومفردها أكرام. ولا علاقة إطلاقا لهئلاء المرابطين بالدولـــة المرابطية التي استعارت اسمها من رباط عبد الله بن ياسين.

11)ـــ سبل يسبل : وهب شيئا ما في سبيل الله (اللسان:320.11).

12) ـــ محمد حجي : الزاوية الدلائية ، ص :.25

13)ـــ إبراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ . ج 1 ، ص: .281

14) ــ الوجاني نجية : دراسة كتاب "المنهاج الواضح في تحقيق كرامات ، أبي محمد صالح"بحث للإجازة في التــاريخ ــ كلية الآداب ظهر المهراز ــ فاس ــ 1994 ، ص : 30.

15) ــ Michaux-Bellaire : Conférences.A.M.V.27 , Paris 1927 , p : 51.

16) ــ محمد المنوني : ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين. منشورات كلية الآداب ــ الربــاط ــ 1979 ، ص:.47

17) ــ محمد حجي : م.س. ، ص : 25.

18) ــ إبراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ ، البيضاء 1993 ، ج 2 ، ص: 86.

19) ــ نفسه . م.س. ص :.87

20) ــ فيما يتعلق بمظاهر الصراع على السلطنة بين أبناء الدولة المرينية أنظر :

ــ عبد الرحمان بن خلدون : تاريخ عبد الرحمان بن خلدون . ج7 من ص : 397 إلى ص :.482 تحقيق : خليــل شحادة ــ

سهيل زكار ــ ط ــ دار الفكر ــ بيروت 1981.

21) ــ أنظر في هذا الصدد ما ورد في ترجمة محمد بن المبارك الأقلاري بدوحة الناشر ص : 124.

22) ــ فيما يتعلق بأتباع الشيخ محمد بن سليمان الجزولي أنظر :

ــ محمد المهدي الفاسي : ممتع الأسماع في الجزولي والتباع وما لهما من الأتباع. تحقيق عبد الحي العمراوي وعبــد الكريــم

مراد . ط I ــ الدار البيضاء .1994

23) ــ إبراهيم حركات : م.س. ج 2 ــ ص : 90.

24) ــ فيما يتعلق بتحويل حركة التجارة الصحراوية إلى سواحل المحيط أنظر :

D.J. Meunié, le Maroc Saharien des origines au 165°.Paris – 1982 – Tome I de p : 341 à – 345.

25) ــ تعتبر زاوية الحاج إبراهيم الأنصاري والتي تعرف بزاوية سيدي الناس أسبق للوجود من زاوية سيدي علي بــــن مَحمد البكري (الحركة الفكرية 545 : 2) لكن ليس هناك ما يدل على أنها زاوية جزولية ، لذلك اعتبرنا أقدم زاويــــة تابعة لهذه الطريقة هي زاوية سيدي علي.

26) ــ تمتد واحة فَزْواطة من فم زاكورة شمالا إلى فم تاقات جنوبا.

27) ــ أحمد بن خالد الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ــ الدار البيضاء ، 1955 ، ج 5 ، ص :.26

28) ــ د. محمد حجي : الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين . فضالة 1978 ، ج2 ، ص : 533 - 534.

29)- محمد المكي بن موسى الناصري : طليعة الدعة في تاريخ درعة : مخطوط خاص ص :.10

30) ــ محمد المختار السوسي : المعسول : البيضاء 1963 ، ج 19 ص: 120 - 121.

31) ــ فيما يتعلق بالزمن الذي هاجر فيه سيدي علي بن مَحمد الشيخ إلى درعة أنظر :

ــ محمد حجي : م. س. ج 2 ، ص : 545.

32) ــ أغفلنا التوسع في موضوع العلوم التي كانت تدرس بهذه الزاوية لأنه سبق أن تناولنا الموضوع ضمن مداخلـــة بعنوان المدارس العلمية بدرعة في الملتقى الثقافي الأول لزاكورة أبريل 1999 وستنشر هذه المداخلة ضمن أعمـــال هـــذا الملتقى بحول الله.

33) ــ ذلك ما استفدناه من خلال بعض التعاليق على نسخة خطية من كتاب الشفا للقاضي عياض، وكان الكتـــاب يدرس بهذه الزاوية إلى حدود العقود الأولى من القرن الثاني عشر الهجري / 18م.

34) ــ حول الظروف الذي تم فيها نهب أمتعة زيدان السعدي بما فيها الكتب التي نهبها من زاوية سيدي علي أنظر :

ــ إبراهيم حركات : م. س. ج 2 ، ص: 306.

35) ــ التقي العلوي: العلامة المحدث المفتي : أبو مالك عبد الواحد بن أحمد الحسني : دعوة الحق ع:10 س 1978 — 19 ــ ص : 27 - 26.

36) ــ محمد حجي : م.س. ص : 533.

37) ــ تطرق الزميل عبد الرحمان المتقن في عرض له بعنوان "معلم حديث من القرن العاشر" في الملتقى الأول لزاكـــورة ، أبريل 1994 ــ لتحليل طريقة سيدي مَحمد بن مهدي في التدريس والتي لا تختلف كثيرا عن الطرق الحديثة.

38) ــ أحمد بابا التنبكتي : نيل الابتهاج بتطريز الديباج . القاهرة :1329 / 1911 ، ص : 339.

39) ــ التقى العلوي : دعوة الحق .م.س. ص: 27.

40) ــ محمد حجي : الحركة الفكرية. ج 2 ، ص: 534.

41) ــ زيارة ميدانية لمنطقة تامكروت سنة 1999.

42) ــ محمد حجي : م.س. ص: 5.

43) ــ محمد المكي بن موسى الناصري : الدرر المرصعة مخطوط خاص. ص :.112

44) ــ محمد المكي بن موسى الناصري .م.س. ص: 113 - 112

45) ــ زيارة ميدانية لضريح سيدي أبي القاسم الشيخ في بداية التسعينات.

46) ــ محمد الصغير اليفرني : نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي. نشر هوداس: باريس 1888 ــ ص : 16.

47) ــ سبق لنا أن حددنا أصل تسمية المرابط لأنه كان يرابط للجهاد ومن هنا أيضا اســـتعار أبنـــاء الزوايـــا إســـم اللمرابطين لأنهم كانوا من قدماء المرابطين مع الدولة السعدية بسوس.

48) ــ محمد المختار السوسي : المعسول . ج 12 ــ ص : 32 — 31

49) ــ محمد بن لحبيب التمنوكالي : العقود الجوهرية مخطوط خاص . ص:.4 ونلاحظ أن رجال التصـــوف كـــانوا ينشرون مثل هذا التفكير بين أتباعهم فقد ورد عند صاحب (دوحة الناشر ص:88) كان يقول لأتباعه دع الناس ومـــا دفعوا إليه فمراد الحق ماهم عليه. أما محمد بن سليمان الجزولي مؤسس وشيخ الطريقة الجزولية فقد كان يقول أن مـــن كان في قلبه ثلاثة أمور وهو يدعو إلى الله بالتوبة فهو زنديق: الافتخار بالعلم وسوء الخلق ، وسوء الظن بالخلق.

50) ــ غالبا ما كان شيوخ الطريقة الجزولية هم الذين يختارون المكان المعين لبناء الزوايا حيث يوجهون للمكان المعـــين أحد أتباعهم المقربين أنظر في ذلك ما ورد عن بعض الشيوخ لأتباعهم عند :

ــ محمد المهدي الفاسي : ممتع الأسماع في الجزولي والتباع وما لهما من الأتباع. تحقيق ع.الحي العمراوي وع.الكريم مراد. ط2 ــ البيضاء ــ 1994 في ترجمة الغزواني . ص:.57 وترجمة عبدالله بن حساين الأمغاري ص:.85

51) ــ أحمد بن خالد الناصري: طلعة المشتري في النسب الجعفري ط فاس 1310هجرية ، الجزء الأول ص : .142

52) ــ أنظر ما ورد (في ممتع الأسماع ص:54) عن الشيخ الجزولي الذي كان يحض كبار أتباعه بـالخروج لاصطياد الرجال وضمهم إلى الطريقة.

53) ــ محمد المكي الناصري: طليعة الدعة في تاريخ درعة مخطوط ص:.10

54) ــ أحمد بن خالد الناصري: طلعة المشتري .ج 1 ، ص: .134

55) ــ نفسه . م.س. ج 1، ص :.142

56) ــ محمد المكي الناصري : الدرر المرصعة، مخطوط خاص . ص:.272

57) ــ نفسه .م.س. ص: .273

58) ــ أحمد بن خالد الناصري : م.س. ج 1 ، ص :.147

59) ــ نفسه . م.س. ج 1 ، ص : .150

60) ــ نفسه . م.س. ج 1 ، ص : .171

61) ــ فيما يتعلق بسلسلة الطريقة الغازية وسندها من الشيخ سيدي الغازي إلى أبي الحسن الشاذلي أنظر:

ــ أحمد بن خالد الناصري : طلعة المشتري ج 1 ، ص : .164

62) ــ نفسه . م.س. ج 1 ــ ص : .142

63) ــ نفسه . م.س. ج 1 ، ص :.148

64) ــ نفسه . م.س. ج1 ، ص : .155

65) ــ تشكل سلسلة المصافحة التي اعتمدها الشيخ مَحمد بن ناصر والتي استند إليها الحسن اليوسي هكذا عن الشيخ مَحمد بن ناصر عن سيدي علي بن يوسف التمازري عن شيخه سيدي عبدالرحمان بن محمد المهراوي التمتيكي عن شيخه سيدي مَحمد بن ناصر من أهل الركيبات عن شيخه عبد الكبير المهراوي عن الشيخ الكبير سيدي عبد الرحمان الثعالبي رضي الله عنه أنه قال من رعا من رعاني إلى سبعة ضمنت له الجنة.

66) ــ أحمد بن خالد الناصري : م.س. ج 1 ، ص: .163 - 162

67) ــ نفسه . م.س. ج I ، ص : .148

68) ــ أنظر ترجمة أحمد بن عبد القادر التستاوتي الزعري عند :

ــ محمد بن الطيب القادري : نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني. تحقيق ذ.محمد حجي ــ ذ.أحمد التوفيق. الرباط 1986 ج 3 ، ص : .228 - 227

69) ــ أنظر مجموعة من الرسائل المتبادلة بين أحمد بن عبد القادر التستاوتي ومحمد بن ناصر. في طلعة المشتري ج 1 من ص 266 إلى ص .278

70) ــ محمد المختار السوسي : المعسول ج 19 ، ص : .121

71) ــ عنوان هذا الكتيب كاملا هو : هدية السرور من الملك الخلاق في كرامة ولي الله سيدي أبي القاسم بن عبـــد الرزاق. وما يزال الكتيب مخطوطا ونتوفر على نسخة مصورة منه.

72) ــ مجهول : هدية السرور من الملك الخلاق ، مخطوط خاص . ص: 4 و.5

73) ــ نحيل هنا على عدد من رسائل أحمد بن عبدالقادر التستاوتي إلى الشيخ محمد بن ناصر حيث يعترف لــــه بما ارتكبه من معاصي وجرائم ويترجى من الشيخ أن يقبله كواحد من أتباعه وأهل دائرته لعل الله يغفر له وماذلك علـى الله بعزيز (طلعة المشتري ج I من ص 266 إلى ص 278. ومن ذلك ما ذكره صاحب الدرر (ص:290) أن رجلا مــــن قبيلة أولاد يحيى بدرعة كان من أتباع الشيخ وكان غنيا فلما كبر أولاده تعاطوا لقطع الطريق على الســـابلة فوافقــهم والدهم على ذلك فأفقرهم الله وجاء الرجل إلى الشيخ يستعطفه ويتوب على يديه ... ثم أن الرجل تاب توبة نصوحـــا فأغناه الله.

74) ــ محمد المكي بن موسى الناصري : م.س.

75) ــ G. Spillmanu, Districts et tribus de la Route Vallée du Drac A.M. T.2 - V.9.Paris1931,p :51

76) ــ ذلك ما لاحظناه من خلال الوثائق التي بين أيدينا عن زاوية تينمسلا.

77) ــ سبق لنا أن أشرنا إلى الهجوم التي تعرضت له زاوية سيدي علي بن محمد الجزولي من طرف زيدان الســـعدي الذي نهب ذخائر هذه الزاوية واستولى على أموالها.

78) ــ فيما يتعلق بالظروف التي تمكن خلالها الأشراف العلويون من بسط نفوذهم على واحات وادي درعة ابتداء مـن سنة 1051هـ / 1640م أنظر : أحمد البوزيدي:التاريخ الاجتماعي لدرعة.الدار البيضاء 1994 ، ص: .96 – 92

79) ــ محمد المكي بن موسى الناصري : الدرر المرصعة مخطوط خاص .ص :.130

80) ــ لم تتمكن زاوية تينمسلا من مسايرة منافسة زاوية تامكروت وذلك يرجع حسب اعتقادنا إلى غياب النشـــاط العلمي بزاوية تينمسلا.

81) ــ نقصد بالسياحة الصوفية تلك الرحلات التي ينظمها شيخ زاوية من الزوايا صحبة عدد من مريديه وأتباعه حيث ينتقل عبر جهات مختلفة للاتصال بالأتباع وتدريب المصاحبين له على التجرد والصبر على ضنك العيش. ويستغل الشيخ هذه السياحة الصوفية لحل مشاكل أتباعه وتلقين الورد للمريدين الجدد.

82) ــ محمد المكي بن موسى الناصري : الرياحين الوردية في الرحلة المراكشـــية . مخطـــوط الخزانـــة العامـــة رقـــم د:1864،ص:.23-9

83) ــ قبيلة متوكة: قبيلة كبيرة من قبائل الأطلس الكبير الغربي وتتداخل مجالاتها ببعض القبائل المجاورة لها مثل حاحـــا (غربا) أولاد بوسبع ومجاط(شمالا) مزوضة وسيكساوة(شرقا) ودمسيرة(جنوبا).

84) ــ أحمد بن خالد الناصري : طلعة المشتري : جI ، ص: .177

85) ــ نفسه . م.س. جI ، ص: .178

86) ــ فتـــوح : جمع فتـــح وهو ما يقدمه الأتباع كوعدات ونذر للزاوية ويظهر أن أصله جاء من كلمة فتح وتعـــني الطلب والمسألة إلى الله (اللسان ج 2 ، ص : 537).

87) ـــ تقع زاوية البركة في المدخل الجنوبي لواحة ترناتة بالضفة الغربية لنهر درعة ، وهي اليوم أدمجت في مدينة زاكورة وتعتبر حيا من أحياء المدينة.

88) ـــ القطة : مصطلح محلي ومعناه المجال الزراعي والرعوي الذي تتصرف فيه قبيلة ما من قبائل القصور.

89) ـــ تنسيطة : إسم لقصرين (تنسيطة خشاع ، وتنسيطة النشاشدة) من أهم القبائل اليحياوية بواحة ترناتة ويزحف العمران على القصرين الآن بحيث لا يمضي وقت كبير حتى يدمجان ، إن لم يكونا قد أدمجا فعلا في مدينة زاكورة.

90) ـــ زاوية الفتح : زاوية صغيرة بالمدخل الجنوبي لواحة ترناتة بالضفة الشرقية لنهر درعة.

91) ـــ قصور أولاد الحاج: هي قصبة أولاد العكيد وقصبة أولاد الباشا وزاوية سيدي أحمد بن علي ، وتندر قبائل أولاد الحاج ضمن تجمعات قبائل الروحا بترناتة.

92) ـــ لم نتمكن أن نتبين شيخ زاوية تينمسلا في نهاية القرن الحادي عشر الهجري. ونرجح أن يكون هو سيدي اعمرو بن أحمد حفيد أبي القاسم بن عبد الرزاق ، وقد كان حيا سنة 1111 هجرية حيث جدد مسجد تينمسلا.

93) ـــ تقع زاوية إخف نوزرو (رأس الحجر) في المدخل الجنوبي لواحة مزكيطة بالضفة الشرقية لنهر درعة وغير بعيد عنها تقع زاوية الموضع بنفس الواحة.

94) ـــ تقع زاويتي سيدي عمرو العليا والسفلى بواحة ترناتة.

95) ـــ ذلك ما لاحظناه من خلال رسالة بدون تاريخ موجهة إلى مقدمي زاوية تينمسلا القادرية بالجهات التي ذكرناها.

96) ـــ ذلك ما تكشف عنه بعض الوثائق التي تعود إلى أواسط القرن 13هـ /19م.

97) ـــ هذه الرسائل مبثوثة في غير ما مصدر من الكتب الناصرية، إلا أننا اعتمدنا على الرسائل التي جمعت مع الأجوبة للشيخ محمد بن ناصر، وكذا الرسائل المنشورة بكتاب : طلعة المشتري: ج I ، من ص: 174 إلى ص: 179.

98) ـــ مما يدل على تمكن الطريقة الناصرية بسوس ما يشاع على أن الضيف إذا طرق باب دار بسوس عما إذا كان ناصريا فيقومون بضيافته وإذا لم يكن ناصري رفض.

99) ـــ أنظر ما توصل به الشيخ محمد بن ناصر من فتوح وهذا من أحمد بن عبد القادر التستاوتي في طلعة المشتري ج1 .

100) ـــ كان سيدي محمد بن ناصر يكلف بعض أتباعه من قبائل الروحا وأولاد يحيى لحماية القوافل التجارية (الدرر المرصعة ص : 291.

101) ـــ محمد المكي الناصري : الدرر المرصعة مخطوط . ص: 282 - 281.

102) ـــ أحمد بن خالد الناصري: طلعة المشتري ج 2 ، ص: 22.

103) ـــ نفسه .م.س. ج 2 ، ص :.72

104) ـــ أنظر ماذكره صاحب الدرر المرصعة في شأن زاوية تينمسلا: الدرر، ص: 130.

105) ـــ محمد المنوني : حضارة وادي درعة من خلال النصوص والآثار. دعوة الحق : السنة 18 ، عدد :2 أكتوبر1973 ،ص.147

106) ـــ محمد بن عبدالسلام الناصري: المزايا فيما أحدث من البدع بأم الزوايا. مخطوط خاص . ص:.139

107) ـــ محمد المكي بن موسى الناصري : الدرر ، ص:.45

108) ـــ أحمد بن خالد الناصري : طلعة المشتري ج 2 ، ص: .93 - 90

109) ـــ أحمد بن خالد الناصري .م.س. ج 2 ، ص : .5 – 4 - 3

110) ـــ محمد المكي بن موسى الناصري : الدرر المرصعة .ص:.246

111) ـــ الشيخ أحمد بن ناصر : الرحلة الناصرية ، طبعة حجرية ـــ فاس 1322 ، ج I ، ص: .188

112) ـــ نفسه .م.س. ج 2 ص : .189

113) ـــ أحمد بن خالد الناصري : طلعة المشتري ج2 من ص :113 إلى 118.

114) ـــ يرفض صاحب الدرر ما ذهب إليه الفقيه الشرحبيلي بأن الشيخ أحمد بن ناصر قد أوصى له بالمشيخة.

115) ـــ حول هذه القضية ومحاكمة الفقيه الشرحبيلي أنظر: ـــ محمد المختار السوسي : المعســول ج 18 ، ص: .242 - 241

116) ـــ محمد المكي بن موسى الناصري: الدرر المرصعة ، ص: .410

